مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
²ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189

مجلد: ... عدد ... جوان ....
العنوان: ص.ص.

علم النفس و الفلسفة
مقاربة جينيالوجية تاريخية

د.لحسن صدار
كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية جامعة معسكر
Lahsen.seddar@univ-mascara.dz

Psychologyy and philosophy
Genealogy Historical Approach
Seddar lahcen

Abstract:

One of the axioms of things is that the original epistemological womb of all knowledge and sciences is philosophy. Psychology, in all its public and private fields of knowledge, was included in philosophical studies, and for this we will try in this study to address the relationship between philosophy and psychology through an intermediate study that we conducted each in his field of specialization And it is an attempt to shed light on the alphabets that establish an integrated system

Keyword: Philosophy, psychology, behavior, love, conscience .

الملخص :

من أوليات المعرفة، القول بانحدار العلوم الاجتماعية والانسانية من الفلسفة، إذ تشكلت مبادئ هذه الفروع ومناهجها داخل الممارسة الفلسفية، فعلم النفس كفرع من هذه الحقول المعرفية بكل مجالاته المعرفية العامة و الخاصة كان متضمنا في الدراسات الفلسفية، إذ لا يخلو أي نسق فلسفي قديم أو حديث من مفهوم او تصور للنفس، وتصنيف لها و لهذا سنحاول في هذه الدراسة التطرّق للعلاقة بين الفلسفة و علم النفس ، وكيف كان انتقال البحوث النفسية، من لحظات

التأمل الفلسفي الى مواقف الملاحظة والمعاينة، وهل كان هذا المخاض يسيرا أم اعترضته إشكالات منهجية وثقافية؟ وهل استقلالية علم النفس عن الفلسفة كان بحجة المنهج ام لخصوصية الموضوع؟

الكلمات المفتاحية : الفلسفة،علم النفس ،السلوك،الشعور، الحب، المنهجية.

1- مقدمة:

يضع العنوان المتلقي أمام تصورات ودلالات متشظية، تسافر بذهنه بعيدا نحو حقب تاريخية، ولحظات زمنية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني، وأولها لحظة التفكّر، والتدبّر التي بدأ الإنسان فيها بمساءلة ذاته، بغية استكناه جوهرها، وتفسيرحركتيها التي وضعته ولا تزال بين إمكانات متغايرة، ومتفارقة، كما نجد ان الجاذبية الفنية والاستهوائية في الخصوصية النفسية، تجعل من الإحاطة بالتفكير الفلسفي، ونتائجه مطمحا لدى علماء النفس، والباحثين في الميدان، وهي من الاحالات التي تضفى على دلالات العنوان، كما كانت الظواهر النفسية الغريبة، والتي اصطلح عليها بالحياة البارسيكولوجية، والتي أعجزت علماء النفس، واضطرتهم الى الاستنجاد بحقول معرفية غريبة عن السيكولوجيا من بين الدلائل التي تقرّر الغاية من هذا البحث.

ما نبتغيه في هذه الدراسة هو بيان هذه العلاقة الموضوعية، والمنهجية، والجامعة بين الحقلين المعرفيين، والتأكيد على قوّة الحضور الفلسفي، والتعلق الأزلي بين قضايا علوم النفس، والتعاطي الفلسفي.

2- النفس في الفكر الشرقي:

نستهل رحلتنا المعرفية بالبدايات الفكرية، التي كانت فيها البحوث النفسية جزءا من المنظومة الفكرية للمجتمعات البشرية، أي النسق المعرفي العام، وستكون الوقفة مع المنظومة الدينية التي اصطبغت برؤية أثنينية جعلت فيها النفس مصدرا للشرور في العالم، فهي مركبة الشيطان، والآمرة بالسوء، والفوز في الدنيا لايتم إلا بالتغلب عليها، وقهرها ثم تطور الوعي بهذه النفس الى صورة التهذيب لما وجد الانسان ذاته امام مفارقات نتجت عن وعيه المليء بالالتباس، ومطعم بكثير من الأحكام والتجارب الفردية والجماعية الفاشلة في إدارة النفس، فمحدودية الرؤية، وقصر النظر، منقصة عند الكائن، والمرجع في ذلك هو النفس، والحكم التي استخلصتها البشرية في تجربتها تؤكّد هذا المنحى، وسنستأنس بنموذج شرقي عالمي وهو الفلسفة الطاوية، التي تبلورت على يد لاوتزو، وتشوانغ تزو، وعلة الاستئناس في المقام تقوم مقام الشاهد على التقاطع الصارخ بين البحث الديني والفلسفي، في مسألة النفس، وهي من أهم اللحاظ والخصوصيات التي تميّز الفكر الشرقي، كما نجد من باب العدل البدء بالفيلسوف لاوتزو على قاعدة السبق التاريخي، فقد كان حضوره العلمي سابقا للفيلسوف كونفوشيوس، حيث يذهب المؤرخون الى القول بأن: [لا وتزو] يكبر [كونفوشيوس] بحوالي خمسين سنة ، والنص التالي : معرفة الدائم من بعد النظر.. وعدم معرفته تقود الى المصائب .. فبمعرفة الدائم الذهن مفتوح. ومع ذهن مفتوح يكون القلب مفتوح. وإذ تكون مفتوح القلب يمكن ان تتصرف بصورة ملكية. وحيث تكون ملكيا تكون الهيا. وحيث تكون الهياً تكون مع التاو يدا بيد.(تسو،، 1995، صفحة 73)

يجمع لاوتزو بين صفاء الذهن من قيود الشهوة الجسدية والنفسية، وبين الالهية، التي اعتقد البعض من علماء الغرب من خلال فهمهم

الضيق بوثنية الشرقيين، والقصد من الالهية عندهم، التسامي والتعالي، وهو ما يصطلح عليه أيضا عند المسلمين بالقرب الالهي، فالتعلّق القائم بين النفس والعالم المادي المتغيّر أو ماحدّه العلماء بعالم الفساد.

3- الدين والنفس:

الحوادث النفسية في الدراسات الدينية أو ما يمكن التعبير عنه بالفكر الديني تعكس الجزء أو الأصل الطبيعي في الانحراف، فالغرائز التي تؤلِّف هذه الطبيعة مبدأ كل الشرور، ومرجعا لكل التوترات النفسية، فالمخيال الديني في تعاطيه مع القضايا النفسية أحالها الى علل متعالية ومستقلة على الحادثة النفسية، ومن بين تلك الحالات الصرع والمس وماشابه ذلك من أعراض سلوكية شاذة ، أما التعامل الديني مجسدا في شخصية الانبياء، فلم يكن التعامل النبوي خرافيا او تعاطيا متعاليا على الظواهر، فالنفس والحوادث مرتبطة بمسالة التهذيب، الذي يحدثه الفرد والوسط على شخصية المرء، فمن خصوصيات الرسالة الموسوية أ أنها كانت رسالة موجهة لدحض ومقاومة الانحراف الفكري السائد في المخيال البشري، وهو ما تجلى في تفشي السحر والتجارة به والاعتقاد في صلاحيته، وقصة موسى سلام الله عليه في دحض حجة السحرة، وتسليم السحرة بقوة وعظمة اله موسى رسالة الى المعتقدين وضربة قاضية للمخيال البشري آنذاك، فالحوادث النفسية كأعراض، وكجوهر ليست مستقلة الارادة وخالية من العناية، والتوجيه، كما نستشف من الحدث الاشارة لحضور الميل الى الانحراف في الطبيعة البشرية الثانوية وليست الاولية أي الطبيعة الثانية كما يصطلح عليها ارسطو.

سارت الديانة المسيحية، وبعيدا عن الفكر الديني المسيحي، في خط الاصلاح، إذ لو حظ أن تفشّي الأمراض العضوية والنفسية والبسيكوسماتيكية في عصر المسيح سلام الله عليه جعل من رسالة المسيح موجهة ومتميزة، بأليات العلاج المستخدمة من قبله في علاج المرضى، وإضفاء صورة الاعجاز على الطريقة النبوية في علاج المرض تتعارض مع بعض النصوص التاريخية والموجودة في الاناجيل، إذ تؤكّد الروايات أن الرسل الذين بعثهم المسيح بمهمة الدعوة، أكدت على ممارسة الرسل أيضا لمهمّة العلاج، فالعلاج العضوي او النفسي لم يكن منوطا بالسيد المسيح فقط، بل علم التلاميذ سبل العلاج أيضا، اما حضور النفس في هذه الحالات المرضية فلا يحتاج الا لقراءة متواضعة في تراث الفكر المسيحي، وقصة مريم المجدلية، وطريقة تعامل المسيح سلام الله عليه معها تحمل او تستبطن الاداء النبوي مع تلك الحالات النفسية، وبالمقابل تجد الفكر الديني لا زال متزمّتا، ومدعيا لسلطة التعالي في امتلاك السلطة، وهؤلاء المذنبين لا موقع لهم في عالم الكنيسة او المسجد، وإن كانت هذه المؤسسات قد اصبحت كما يقول توماس مور زريبة لأغنام رجال الدين.

أما النظرية النفسية في الاسلام فأدقّ وأوسع، فتشمل الكثير من المباحث، فتمثلات النفس الثلاث : الامّارة، المطمئنة، اللوّامة تكشف عن الرؤية الموضوعية لبنية النفس الإنسانية التي تتقاسمها قوى متعددة، كما احتلّت التربية مكانا رئيسا في الرؤية الاسلامية، إذ نلمس نظرية متماسكة في البناء النفسي والعاطفي للأبناء، والقول الذي نتقدّم به ليس من قبيل التعايش العاطفي مع النظرية الاسلامية، فلم تأخذ النفس في التراث الاسلامي صورة واحدة مثل القراءة السلبية والدونية التي وضع الفكر الديني السابق النفس فيها، كما يقتضي العدل

منآ القول أن الحقيقة النفسية واحدة بين جميع الديانات، وما شكّل الفارق هو المتدينين، ورجال الفكر الديني بشكل أدقّ.. ومن بين المسلمات الاسلامية والتي يمكن ان تحل الكثير من الاشكالات العلمية في الساحة النفسية المقولة المنسوبة الى الامام علي كرم الله وجهه، والتي تشير الى الطبيعة البشرية، وموقعها من أصناف الطبائع الأخرى ، والتي جاء فيها :" أن الله ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرٌّ من البهائم.(البستاني، 1992، صفحة 15)

فثنائية التركيبة الانسانية لا تقف موقف الوضعية السكونية في السلوك البشري، بل تقع موقع المحرك الديناميكي لجميع اشكال النشاط، فالإرادة تكون بين هاتين القوتين، قوة الشهوة، وقوة العقل أمام لحظة اختبار، إذ أن الموقف الانساني بتعقيداته يضع قوى نفسية عليا أو بالأحرى روحية، تعكس الامكانيات العليا المستبطنة في شخصية الانسان، والذي خلق في الفلسفة الدينية بغاية الخلود، وليس بقصدية الفناء، وليست هذه الخاصية منقصة في الطبيعة، بل تمنح وتقعد للرغبة في الحياة السعيدة ، وبدونها تنعدم، وانحرافالمقاربات التقليدية عن جادة الحق كامن في أدلجة الرؤيا ليس إلا.

4- النفس في الفلسفة:

مسألة التفرقة بين الفلسفة وعلم النفس، من التقاليد الفكرية الجديدة التي تمخضت عن التقنية، و عن دكتاتورية الايديولوجيات،

بكل مرجعياتها العرقية والاقتصادية والسياسية، والتي ليست إلا بدعة استحدثتها الغرب، وحاكاه في ذلك الشرق، والتفرقة انطولوجيا بين الحقلين المعرفيين، أوحت لدى البعض فكرة التباعد والمفارقة (الباردوكس)، والأصل كان متعلقا بالبحث عن منهج ملائم يتجاوز الذاتية المستبطنة في وضعية الفهم الفلسفي للقضايا، والسعي نحو التقدم بالبحث السيكولوجي، وعلى قاعدة الاكتفاء بالقشور، والبحث عن محطات الاختلاف في إنتاج حصص المقابلات، فإن المعركة بين الفلسفة والعلم ليست إلا ضجة مفتعلة، وانحراف استساغه الفكر العربي، وبقي يترنح في مكانه، ومكانته السكونية..

التقاطع الثابت بين الفلسفة والنفس، يكمن في موضوع العلم نفسه، فالاتفاق او الاجماع على دلالة النفس هو الاصل في اختلاف المدارس النفسية، الاختلاف الذي ساهم في بلورة هذا العلم، وبيان الحضور الفلسفي في تاريخ علم النفس واضح وجليّ، على قاعدة احتواء المنظومة المعرفية الفلسفية لكل القضايا الكونية، مادية كانت أو انسانية، والآية السقراطية : " أعرف نفسك بنفسك " كافية عن التصريح والشرح المفصل لأهمية النفس في البحث الفلسفي، واهتمام الفلاسفة بالنفس لم يكن معرفيا صرفا بل كان وظيفيا، فالبحث عن الشخصية النموذج كان مطلبا اجتماعيا بامتياز، ولم تكن الفلسفة الا تنظيرا وتوثيقا لهذا الامل، والأخلاق كمبحث فلسفي، قائمة على التأسيس والتأصيل النفسي، إذ أنّ البحث في الرغبة والسعي نحو سبر طبيعتها من المسائل التي استأثرت باهتمام كل من سقراط وافلاطون وارسطو.

تظهر العلاقة أيضا بين الفلسفة وعلوم الانسان في الاحتواء الظاهر للموضوع، حيث كانت العلوم الانسانة تعيش لحظة غموض لوعيها الخاص ومناهجها، خصوصا في تحديدها المجال الذي

اصطلحت عليه بالروح أو الفكر، والذي يشكل حاليا إرثا وجدت العلوم الإنسانية (نفسها) مدعوة إلى توظيفه بطريقة واضحة وجلية وعلمية.

أخذت العلوم النفسية و عموما وعلم النفس خصوصا على عاتقها الاهتمام –بصفة شرعية- بهذا المجال الواسع المشار إليه سابقا، فلأن الفلسفة قد تركته بدون استثمار. وبكل تلقائية، أولئك الذين عرفوا بأنهم المشتغلون بالعلوم الإنسانية، أولئك الذين يعتبرون أن المهمة الفلسفية التقليدية، التي ولدت مع الفكر الإغريقي هي ما يجب إعادة الاهتمام بها حاليا، ولكن هذه المرة بأدوات العلوم الإنسانية. لا أظن أن هذا يحيط تماما بالمشكل، إذ يبدو لي أن تحليلا كهذا للأشياء يظل مرتبطا بشكل بديهي بتصور فلسفي هو الوضعية Positivisme.

يصعب على الباحث في تاريخ الدراسات النفسية الإقرار أو الادّعاء بامتلاك مفكّر أو شعب لأسبقية البحث في هذا الحقل، فمن المؤكّد أن جميع الجماعات البشرية مارست التفكر والتدبر في خطورة النفس في الحياة السلوكية للأفراد والجماعة، والرسالات السماوية في شتى صورها كانت موجّهة مباشرة لإصلاح الانحرافات النفسية التي كان السلوك الشاذ مرآة لها، فالجريمة الأولى في تاريخ البشرية كانت النفس وراءها، ولا زالت لحد اللحظة ومابعدها أيضا..

يعتبر سقراط فيلسوف اليونان، ومرجع التفكير والانساق الفلسفية، من الأوائل الذين قاموا ببلورة البحث النفسي، فتركيزه على االمسائل الأخلاقية أحال سقراط الى التعمّق في قراءة النفس، فهي العالم الخفي الذي ينطوي فيه العالم الأكبر، والحقيقة التي تشكّل محور البحث العلمي هي النفس، ومن الصعب التمييز بين نظرية النفس

السقراطية والافلاطونية على قاعدة التداخل االقائم بين فكر الفيلسوفين، وعلى حد تعبير الاهواني :"... ظل سقراط يشقى في البحث عن طبيعة النفس، ولم يبلغ غايته.. فتابع أفلاطون السير على الدرب (الأهواني، 1991 ، صفحة 17).

كما نلمس في المايوتيك السقراطي او مايعرف بطريقة التهكم التوليدي منجية لازالت حاضرة في البحث النفسي، وهي طريقة المدارس الذاتية في السيكولوجيا، وحتى المدارس العلمية، لا يمكنها الاستغناء عن المنحى الذاتي الذي يكون الموضوع المدروس هو المعبر بين ذاته وعقل الباحث، فالمعرفة الحقيقية عند سقراط تبقى ملكا حصريا للشخص، فمهما كانت الفرضيات ودقتها في تصوير الوضعية السيكولوجية، ولكنها تبقى معلقة باستجابات الشخص، ونسبية النتائج العلمية في الحقول النفسية تثبت ذلك، وما يميز الطرح السقراطي في نظرته النفسية الربط بين الاخلاق والسلوك النفسي، وهذا ما لم تقدر الدراسات المعاصرة على فهمه، والنظرة الدينية عموما والاسلامية خصوصا تؤكّد على دور السلوك أو العادات الأخلاقية في تكوين ردود أفعال نفسية، والعكس، كما نجد أن بقاء وسيادة الفهم الذاتي كأداة لازمة في التعاطي مع الحالات النفسية عند أهم المدارس السيكولوجية، تعبير عن المنحى الفلسفي في البحث.

أما الفيلسوف اليوناني افلاطون، فقد أسّس من خلال تصوره الفلسفي للنفس لكثير من الاليات المنهجية في البحث السيكولوجي، والابعاد الثلاثية للنفس : الشهوية والغضبية والعقلية، فتحت آفاق الانسان نحو إعادة النظر في الاحكام التقليدية المتراكمة حول النفس عبر التاريخ الثقافي، والتي كانت تنعت النفس بصورة سوداوية قاتمة، فبيّن أفلاطون امتلاك النفس للحاظ متباينة، وقد تكون متفارقة، فساهم بذلك في وضع أرضية التخصص داخل الحقول النفسية، فكانت النفس

الشهوية في صورتها العضوية محطة اساس في علم النفس الفيسيولوجي، واما البعد العقلي للحياة النفسية فقد كان محورا اساسيا عند كثير من المدارس السيكولوجية : مدرسة النقاط او ما يصطلح عليها بالغشطلت، وعلم النفس المعرفي، ونفس الحال ينطبق على علم النفس التربوي وأشقائه، اما القراءة الفلسفية الافلاطونية للنفس لم تقدر على بلورة وواضحة، يقول:" لم يكن موقف افلاطون من قضية النفس واضحا في المحاورات الاولى ، فقد سلم مع سقراط، بوجود النفس، وبخلودها، ولكن شروحه لم تتعدى مستوى التصورات الدارجة " إذ اعتبر النفس اهم من الجسد والاعتناء بها لازم من اجل ترقية الفضائل، فالنفس تحتوي على معارف كامنة فيها، خارجة عن مجال الاكتساب البعدي، فالحقائق المطلقة كانت معيشة لهذه النفس في العالم العلوي.. والعلم الكلي ليس إلا تذكر.

اما المعلم الاول ارسطوطاليس فمباحثه النفسية في الحقل السيكولوجي وثيقة مرجعية لكل باحث، فكتابه في النفس الذي نقله الى العربية (حنين بن اسحاق) يتضمن الكثير من المسائل بمبادئها الأولية وقراءات أرسطو في النفس حسب اعتقادي ولدت شبه مكتملة، والفهم اللاحق لنظرية أرسطو وظف على عادة الباحثين في خدمة الاديولوجيات الفكرية والعقيدية، والروح النسبية التي كانت تلازم البحث الأرسطي تنبئ عن الروح العلمية التي كان يملكها هذا العقل الفذ ، وفي هذا السياق نجده يقول : " من الواضح أنه إذا كان هناك حد تام للنفس، فلن يكون الا من نوع حد الشكل .."(رسطوطاليس، 1962، صفحة 15)[1]

(رسطوطاليس، 1962؛ فرويد، 1999)

فكل تفسير للنفس حسب ارسطو يبقى مجرد افتراض، ويكون مجال البحث في النفس مفتوحا دوما على والبحوث التي اجراها ارسطو في كتابه النفس، قعدت للبحوث في ظاهرة الاحساس والادراك..وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على التأثير الفلسفي في البحث النفسي .

كما يلحظ حضور نظرية الاستذكار الافلاطونية، في البحث النفسي والفلسفي، فلا يحتاج الى بيان تفصيلي، على قاعدة احتواء النفس لجميع مفاتيح السلوك غامضة كانت او واضحة، والمسائل البراسيكولوجية في السيكولوجية تجد في نظرية افلاطون النفسية فضاءا خصبا، وحضور الاستذكار الافلاطوني في مدرسة التحليل النفسي ظاهر في آلية العلاج السيكولوجي المتبعة من قبل رواد المدرسة، فالتنويم المغناطيسي كمدخل او كآلية منهجية مكتشفة قبل منهج التداعي الحرّ تعتمد على مرجعيات منهجية أولها، التسليم بوجود ذكريات مرجعية في تحريك الطاقة السيكولوجية لدى المريض، واكتشافها أو الوصول اليها من قبل المحلل هو بيت القصد في العلاج النفسي.

وإذا أخذنا أيضا ظاهرة الادراك كقضية سيكولوجية، لوجدنا المنحى الفلسفي سائدا وجليا فيها بشكل قوي، في تحليل الظاهرة الادراكية من حيث المفهوم، ومن حيث الطبيعة، فالبحث في طبيعة الظاهرة مبحث فلسفي بالأصالة، وقد قدّمت جميع الأنساق الفلسفية تصوراتها ورأيها في الموضوع، كما أن تفكيك الادراك الى تصورات وتصديقات، أي الى مفاهيم ومفردات تصورية، وتصديقات أو أحكام ذهنية تجمع بيتن التصورات في صور صورية قد تكون موجبة أو سالبة تجد في المنطق الصوري حقلا خصبا تثري به المفاهيم والاطروحات ومن بين المحاولات السيكولوجية التي تظهر فيها

الرؤية والتحليل الفلسفي، أطروحة كوندياك Étienne Bonnot de Condillac (1780/1715) والتي عمل فيها على التنقيب على الظاهرة النفسية الأولية التي تتركب مع نفسها فتؤدي الى الظواهر المركبة .. وقد رأى أن الظاهرة الأولية في المعرفة هي الاحساس والصورة العقلية التي تعبّر عنها.."(بريهيه، 1998، صفحة 38)

أما المدرسة الشكلية (الغشطلت) فقد شمرت عن حجاجها السيكولوجية والمنطقية في دحض هاته الأطاريح الفلسفية، فكان مصيرها هي أيضا أن وقعت في فخاخ الفلسفة، فالاستبصارinsight أو الفهم الكلي لعلاقات المجال الادراكي، والذي يلاحظ في تجربة الشامبانزي+سلطان" التي أجراها كوهلرkohler لايمكن نعته إلا بالتجربة الحدسية intuition والمقاربة الحدسية فلسفيا أدق توضيحا من مقاربة العلماء للحدس، والقصد هنا هو على سبيل الاشارة على الحضور الفلسفي في البحث السيكولوجي.

كما يمكن الاستئناس بالمحاولة التي أقامها سبينوزا Spinoza في فهم او تفسير الظواهر الانفعالية، والتي تظهر من خلال القراءة السطحية لمعاني النص أن الفيلسوف الهولندي يؤسِّس، ويمهد لمقاربة علمية للظاهرة النفسية الانفعال من خلال الفلسفة، والاستهجان الذي يلاحظه سبينوزا على القراءة الديكارتية ينم على الملمح العلمي في القصد عنده إذ نجده يقول: + والحق أن ديكارت ...ففي علمي أنه سعى الى أن يفسِّر الانفعالات الانسانية بعللها الاولى ويبين في الوقت نفسه السبيل الذي تستطيع النفس ان تتوصل بها الى ان تسيطر على الانفعالات سيطرة مطلقة...:(سبينوزا، دت، صفحة 60)

يفتح سبينوزا في كتابه علم الأخلاق آفاق العلمية التي تشدق بها علماء النفس التجريبي بمسألة استقائها من العلوم التجريبية،

وإنكار أبوة الفلسفة لها، والنص التالي يؤكد الحكم :+ ..السبيل السوي لمعرفة طبيعة الأشياء، مهما تكن ينبغي أن تكون أيضا واحدة لا تتغير، عمادها دائما نواميس الطبيعة، وسننها الكونية، فانفعالات الكره والغضب والحسد وغيرها هي في حد ذاتها ، كسائر الأشياء المتفردة ناتجة عما تقتضيه الطبيعة من ضرورة واحدة وماتتصف به من خاصية واحدة ."(سبينوزا، دت، صفحة 163)

كما يمكن توصيف المدارس الجديدة في علم النفس، التي بزغت خلال العقود الثلاث الأولى من القرن العشرين، بأنها ثورات قامت ضد افتراض أو آخر من الافتراضات المستمدة مباشرة من مأثور الفلسفة التجريبية.

5- التحليل النفسي والفلسفة:

الاستئناس بمدرسة التحليل النفسي كنموذج في بيان العلاقة بين الفلسفة والدراسات النفسية يملك الكثير من المبررات، إذ يلاحظ أن سجال التقييم الذي أخضعت له المدرسة نابع من الثورة الابيستيمولوجية والهزة الأخلاقية التي طرحتها المدرسة، والملمح التحرري من الفلسفة يقوم على مسلمات يقررها فرويد في النص التالي : + إن الفلسفة لا تعارض العلم، بل تتصرف هي نفسها كما لو أنها علم وقد تقتبس أحيانًا مناهجه وطرائقه غير أنها تبتعد وتفترق عنه من حيث أنها تتعلق بالأوهام وتدعي بأنها تقدم صورة جديدة مكتملة لا ثغرات فيها عن الكون، وهو ادعاء يتيح لنا كل تقدم جديد في المعرفة أن نتحقق من بطلانه، حيث تضل الفلسفة عن سواء السبيل من وجهة

نظر المنهج بمغالاتها في القيمة المعرفية لعملياتها المنطقية وتسليمها بوجود مصادر أخرى للمعرفة كالحدس مثلاً " (فرويد، 1999، صفحة 97)

نجد في مدرسة التحليل النفسي فضاءا واسعا وخصبا من الادلة والحجج على مسألة التقاطع بين الفلسفة والبحث السيكولوجي، إذ نلاحظ أن الرمز كنموذج، في المدرسة يشكل القصد والمطلب عند رواد المدرسة، فإرجاع الأعراض العصبية والنفسية المرضية الى عالم اللاوعي أو الهو كما يصطلح عليه فرويد، والذي يتحرّك تبعا لمبدأ الليبيدو، من اهم المسلّمات والفرضيات الضرورية في التحليل النفسي ، فالمعلول ناتج ولازم عن علة، وإذا كانت الاعراض العصبية والعضوية تنتج بسب الخلل الواقع في البنية العضوية على مستوى التركيب او على الوظيفة، فإن الظواهر النفسية المرضية، ايضا تكون لمجموعة من العلل تتبع سنخية الحادثة، أي تكون نفسية بامتياز، علما أن الخوض في طبيعة الظاهرة نفسية نفسه يحيلنا الى عناصر متباينة اهمها العنصر الاجتماعي بمحتوياته الاثنية والثقافية، فالعلة السيكولوجية لا تأخذ شكلا واحدا، أي نفسية أو اجتماعية، وإن كانت من حيث النسبة تكون اجتماعية بامتياز، ولهذا نلاحظ أن أفق التحليل النفسي بدأ في الاتساع، وبدأ في تجاوز الخصوصية التجزيئية التي يتسم بها العلم، فهو بشموليته هاته يستشرف على الفلسفة.

فالأعراض العصبية ليست الاتعبيرا عن حاجة أو فقر في التوازن السيكولوجي، فالرمز كمعطى وكقضية مسألة فلسفية بامتياز والعلاقة بين الدال والمدلول من حيث الارتباط الذاتي او التحكمي تساعد المحلل النفسي على فكّ دلالات الرمز السلوكي او اللفظي الذي يستخدمه المريض، وقد شكّلت مسألة تفكيك الرمزية عند علماء المدرسة الآلية المرجعية عندهم، وعليه وجد نفسه المحلّل النفسي

مضطراً الى التبحر في فضاء اللغة، وعالم التأويل اللغوي، لأن اللغة مدخل لفك الغموض الذي يكتنف العرض النفسي، كما لزم على الباحث ايضا المعرفة الدقيقة بتصورات المعتقدات الدينية الكبرى ، لأن إدراك معاني الرموز يسمح لنا بالكشف عن علل الاعراض ، وفهم العلل مدخل العلاج النفسي.

كما نجد أن توظيف الأسطورة في التمثيل والبيان عند المدرسة مثل أسطورة اوديب الاغريقية التي اعتمدت في إحداث ثورة ابيستيمية على مستوى الوعي العلمي والاخلاقي، إذ أصبح التعالي الذي كان يصنف الانسان داخله أمام لحظة مراجعة نقدية، فمن يكون هذا الانسان، وماهي العوالم التي يخفيها، فأسطورة اوديب ومعاناته مجرد تصوير لمخيال الانسان اليوناني ، وليس تصويرا لواقع حي ومعيش، والاحالات التي تستبطنها الاسطورة قدمت لعالم النفس فرويد مرجعية فكرية في اثبات نظريته.

أما اذا حاولنا التعرض لتصور فرويد للانا في كتابه + الانا والهو" سوف نلمس محاولة سيجموند فرويد في عرض تصور فلسفي جديد للعقل، وإذا كان التحليل الكانطي للعقل انطلق من فرضيات مجردة، ومبادئ صورية محضة في قراءة العقل، فصنفه بذلك الى عقل نظري وعقل عملي، فإن عالم النفس فرويد حاول قراءة العقل من زوايا جديدة، سيكولوجية وعضوية، فأنار بذلك مساحة في العقل كانت عصية على الفهم والتفسير من قبل قدماء الفلاسفة، ولذا تعتبر نظريته في اللاشعور من بين الهزات الابيستيمولوجية التي عرفها الفكر البشري، فالعقل او الانا هو الشعور الادراكي الذي يراقب النشاط الارادي ويكيفه حسب مقتضيات الواقع، والذي لا يعكس الا السطح على مستوى الشعور، كما ينبغي الاشارة الى الأطروحة التي كان يعمل فرويد على دحضها هي الاطروحة

الديكارتية أو العقلية التي تعتبر الشعور كوعي، أو عقل مطابق، ومحايث لجميع الحوادث النفسية، يقول فرويد : +.. ان الشعور هو سطح الجهاز العقلي.. ولكن ماشأن تلك العمليات الداخلية التي قد نطلق عليها جميعا في شيء من الغموض وعدم الدقة اسم العمليات الفكرية ؟ إنها عبارة عن عمليات بديلة للطاقة العقلية تمت في مكان ما في داخل الجهاز أثناء اتجاه هذه الطاقة نحو الحركة."(نجاتي، 1982)

التحليل السيكولوجي للظواهر الميكرو بسيكولوجية المؤسِّسة للعقل لا يخرج عن نطاق التحليل التجزيئي في الفلسفة، وقراءة دافيد هيوم (David Hume) من خلال فلسفته في المعرفة تظهر التقارب بينه وبين التحليل الفرويدي، إذ عرف بتحليله لظاهرة الادراك، وتفكيكه الى اهم البنيات السيكولوجية، والمعرفية، وهو ما نلمسه مع فرويد في الآلية المنهجية المستخدمة من قبله في قراءة الحوادث النفسية.

كما نجد الملمح الفلسفي عند فرويد في كثير من الأفكار السيكولوجية، وهي ما اصطلح عليها بالميتاسيكولوجيا، وبيان ذلك يظهر في خصوصية الحادثة النفسية، فهي فردية بالأصالة وشعورية وديمومة، والاطروحة الفرويدية ارتفعت بالنتائج السيكولوجية الى مستوى التعميم الفلسفي والكلي على جميع الظواهر الانسانية، خصوصا التوظيف الذي استثمره فرويد في قراءة المنظومات الاجتماعية مثل الدين والحضارة ..

6- خاتمة:

من الأحكام التي تعايشها العلوم الاجتماعية والانسانية في راهنها، وعبر مسارها التكويني أنها كثيرة المناهج، قليلة النتائج، لأن عالم النظر يقاس بمدى اقترابها من عالم الفعل، وتزايد الأمراض

النفسية والآفات الاجتماعية دليل على محدودية النتائج في هذه العلوم، وبالأخص علم النفس، على قاعدة انطلاق الفعل الانساني من الفضاء النفسي كأرضية لانبثاق السلوك، ويبقى الحقل الاجتماعي المجال الأول للتحقق المادي، والمسألة تبقى حاضرة في البحث الانساني.
وفي الاخير يمكننا القول مع عالم النفس كارل غوستاف يونغ بأنه : + يوجد من علوم النفس بقدر ما يوجد من الفلسفات، وذلك لأن بين علم النفس والفلسفة روابط لا انفكاك منها، على اعتبار أن كليهما يشكلان نظام رأي يبحث في موضوع لا يمكن اختباره تمامًا وبالتالي لا يمكن فهمه وفق منهج تجريبي بحت، وعلى ذلك فإن كلا الميدانين من الدروس يحفز على التفكير مما ينتج عنه تشكيل آراء تبلغ من الكثرة حدًا يتطلب معه جهود ضخمة لاستيعابها جميعًا، لهذا لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر لأن كلاً منهما يمد الآخر بمسلماته الأولية الضمنية التي غالبًا ما تكون خافية(يونغ، 2003، صفحة 291).

المراجع :

-الأهواني ,ف .(1991) .*افلاطون* .مصر :دار المغعارف .
-البستاني ,م .(1992) .*الاسلام وعلم النفس* .بيروت :، مجمع البحوث الاسلامية ، .
-بريهيه ,ا .(1998) .*تجاهات الفلسفة المعاصرة* .مصر :دار الكشاف للنشر. .
-تسو، ,ل .ت .(1995) .*التاو*) .ه .العلوي (.Trad ,بيروت :jدار الكنوز الادبية .
-خياطة ,ه .(2003) .*علم النفس التحليلي*.مصر، :، مكتبة الأسرة، .
-رسطوطاليس .(1962) .*النفس* .مصر :، دار احياء الكتب العربية .
سبينوزا) .دت .(*الاخلاق*.تونس :دار الجنوب للنشر .
-فرويد ,س .(1999) .*محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي*.مصر :، مكتبة .
-نجاتي .(1982) .*الانا والهو*، .بيروت :دار الشروق.
-يونغ ,ك .(2003) .*علم النفس التحليلي*.مصر :، ، ترجمة نهاد خياطة، مكتبة الأسرة، ، ، ص .291